رائحة الجلد المحترق

كان أنفى يدلني إلى المكان، الطرقات الطويلة المتعرجة، التي لا تنتهى كنت أقطعها بسرعة، وشئ كالهدف الثابت يشدني، يستحث خطوي، أما قدماي فقد حفظتا الطريق.

بداخل العنبر الكبير كانت العربة الزجاجية ذات القوائم المعدنية والعجلات، تحمل ملء طابقيها لفائف الهدايا ومعجون الحلاقة وكريم محلى للحلاقة، وماء عطري أيضا لما بعد الحلاقة، كلٌّ في لفافة، يشتبك طرفاها بشريط حريري أحمر، نفس النوع الذي تتأنق به الكلبه الجريفون البيضاء، بحزامها الجلدي الفاخر وشعرها الكثيف يخفى عينيها، وهى تتمسح في أقدام السيدة التي كانت توزع الابتسامات مع اللفائف على الجند، تتسمر لثوان عند كل سرير تنظر في نجومية للمصور حتى يلتمع الفلاش فى يده.

تمهلتُ للحظات حتى انتهى موكب سيدات المجتمع بمصوريه وصحافييه، تقلصت معدتي ثانية وشق عليّ الابتسام، وأنا أومئ بتحية الصباح للراقدين أمامي. ترد عليّ عيون الرجال فى وجوم مغترب.

تبلورت أمامى رائحة الجلد المحترق، وأصبح لها ملامح وأبدان.. رائحة الجلد الذى لم ينطفئ لهيبه بعد. امتد الصمت حولى، سلسلة حديدية كادت أن تطوق عنقي.

فى رحلاتنا المدرسية حين كنا نتزاحم حول أهرامات الجيزة، وخصوصا الهرم الأكبر نتلصص على ما تركه ملوك العصر الغابر، لم أستطع وقتها دخول هرم خوفو، فرائحة الموت والقِدم، طغت علي الشموخ وانتصرت على عظمة التاريخ، وبدأ صدري يفرغ بالونات هواءه، فأخرجونى ولم أعاود دخوله بعد ذلك قط.

لكن هنا اعتاد أنفي على رائحة الحريق، وبرغم الاختلافات المفترضه بينهم جميعا، إلا أن ملامحهم باتت متشابهة، شوه النابلم وحريق الحرب الوجوه الشابه، الأعين تتحرك وتلتمع خلف دوائر منتفخة، الوجوه متورمة، البقع الحمراء الفاتحة والداكنة تنتشر مع

درجات من الهالات السوداء، القشور الجلدية التى سقط بعضها، وتبقى البعض الآخر في تشققات، وخصوصا على الذقن كتلك التي يفعلها الجفاف بالأرض.

يلقى أحدهم بمزحة فينتفض قلبى من القهقهة، التي يكتمها الرجال خوفا من الالم، ورؤسهم حليقة، تلفهم السمرة وندرة الكلام.

الرائحة كانت تسير علي قدمين حتى نهاية الردهة، عشرون سريرا قبالتى، تفشل كل نباهتى في التعرف عليهم، إلا من أرقام أسرَّتهم أو مكانها في العنبر.

كان طعام الإفطار قد أحضروه، في انتظار وصول بقية زميلاتى المتطوعات، لنقوم بتوزيعه وإطعام الجنود.

بدأتُ فى تقطيع الخبز المغموس، وأضعها في فم "مصطفى" حسب قدرة فمه على الاتساع، وقدرته أيضا علي البلع. بين لقيمة وأخرى كان يئن أو يصرخ، أو يتهالك نفسه فاتحا فمه مستسلما، وقد أغمض عينيه، فيصبُّ على معدتى ألما يكفيني لأيام طوال.

بعد قليل قال: اللقمه مش عارف أبلعها.. قطعة طماطم ممكن؟

قلت له متخوفه: لكن..

فقاطعنى بحسم غاضب: مش مهم.

أمسكت بالسكين أمزق ثمرة الطماطم، وكأننى أبقرها. مزقتها قطعا صغيرة، علَّنى أمزق معها حيرتى وعلامات الاستفهام الكثيرة التى يعج بها رأسى. ناولته قطعة فأخرى بالشوكة، سال بعض ماءها مع لعابه إلى ذقنه الملتهبة، فصرخ قلت له: ألم أقل لك؟

فى هذه الأثناء كان صراخ رئيس القسم يصل إلينا عاليا، مع تزايد الضجيج خارج العنبر. الكل يجرى فى كل اتجاه، أصوات لأشياء تجرُّ، وصوت عجلات أسمع صريرها ترج الأرضية.

خرجتُ أستعلم عمّا يدور بالمستشفى العتيق، وصلني صوت أحدهم: سيارات أخرى آتية.. الجرحى أصبح عددهم أكثر من الأسرّة والأماكن.

أسمع صفق أبواب العربات العسكرية وناقلات الجند، تُفتح وتغلق فى عجلة، المحفَّات يحملها العاملون، ويسير من المصابين من يقدر على السير، يتحامل حتى يصل حيث عنبره.

تمر أمامي صور سيدات المجتمع بفلاشاتهم وابتساماتهم. اتجهت إلى جندي كان يحجل بقدم واحده.

قلت له: استند عليّ لا يهمك.

أخبرتنى تقطيبات وجهه الشارده، وكزِّه الدائم على أسنانه أن هناك شيئا آخر غير الألم.. كان فى نفس طولي، أعطيته كتفي وذراعي، وأنا قلبى يكتم بكاءه، وصل إلى مسامعي أسماء مدن القناة؛ الدفرسوار، الاسماعيلية..

سألتُ المُصاب بعد أن استند عليّ: من أين أتيت..؟

ردَّ في وجوم مثقل دون أن ينظر إلى وجهي: من جهنم الحمرا.